٩٩/٥/٦/١٨

المدير المسؤول

محمد العزيز ابن عاشور

وزير الثقافة والمحافظة على التراث

رئيس التحرير

حسن بن عثمان

حياة الثقافية

الهيئة الاستشارية

* عبد القادر بلحاج نصر

* صلاح الدين بوجاه * محمد الغزي

– المواضيع المنشورة لاتعبر بالضرورة عن رأي الوزارة أو إدارة التحرير

– المساهمات التي تصل المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر

السنة 30 العـدد 165ماي 2005

مجلة شهرية تصدرها وزارة الثقافة والمحافظة على التراث بالجمهورية التونسية

أسسها : محمود المسعدي، سنة 1975.

عنوان المجلة : 105 شارع الحرية 1002 تونس – الهاتف : 71 890 646

صورة الغلاف: المسرح الأثري بالجمّ

التصميم والاخراج : مشترك – السحب 3000

تصفيف وطباعة وأعمال أوربيس

الهاتف : 71 547 701 – الفاكس : 71 546 235

ISBN : 0330 – 8863

الإستشراق وحوار الثّقافات

محمّد الكحلاوي

نظم المعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الـزيتونة على امتداد أيام 21 و 22 و 23 من شهر فيفري 2005 ندوة علمية دولية كان موضوعها "الاستشراق وحوار الثقافات" أشرف على افتتاحها وزير التعليم العالي السيد الأزهر بوعوني، وشارك في جلساتها العلمية الست عدد هام من الباحثين والجامعيين التونسيين والعرب على الأخص المغاربة منهم، ومن الأجانب الأوروبيين خصوصا.

وتوزعت محاور اهتمام المداخلات والأبحاث العلمية المدرجة في أشغال هذه الندوة على دراسة مسائل الاستشراق وأطر نشأته ومناهجه وسياقات اهتماماته بالثقافة العربية الإسلامية.

كما نحت أغلب المداخلات المدرجة في هذه الندوة إلى النظر في الاستشراق بما هو حركة لدراسة الرصيد المعرفي والروحي الديني والأدبي الثقافي للشرق في ضوء منهجيات ومنطلقات نظر تاريخية وانتروبولوجية ونقدية فيلولوجية وفلسفية معرفية وفكرية أديولوجية في مناح أخرى، وكان الرهان قائما في أغلب ما قدم على تبيان الأوجه التي كان بها أو يكون الاستشراق منطلقا للحوار بين الثقافات، والتقريب بين الحضارات والتحالف بينها بدلا من الصـدام أو الصراع.

وفي هذا الإطار سعى الأستاذ عبد الملك منصور حسن المصعبي سفير الجمهورية اليمنية بالجمهورية التونسية الذي جاءت مداخلته بعنوان : "الحوار الثقافي العربي الغربي : من الاستشراق إلى خطاب المتفاعل" إلى رصد صورة الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في مرآة الاستشراق، مستخلصا الأحكام التي تصوغ هذه الصورة التي تفضي إلى غرس رؤى مسبقة مشوهة وغير دقيقة يكون لها التأثير الحاسم في طبيعة الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية. فلقد تعامل في نظره الفكر الغربي خلال القرنين الماضيين مع العالم الإسلامي من خلال كتابات الاستشراق التي وظفت في صالح الإستراتيجية الاستعمارية وإرادة التحكّم والهيمنة دون الاهتمام بالصورة التي ينتجها هذا العالم عن نفسه من خلال تراثه وفكره.

وعليه فإن المطلوب اليوم في نظره هو تحرير الحوار الهام بين الغرب والإسلام من خطاب الاستشراق بنقده وتجاوزه في إطار من التفاعل قوامه احترام التنوع الثقافي، وتأصيل فكر الاختلاف، وغايته التوصل إلى قواسم مشتركة ووضع استراتيجيات تكفل التعاون والتضامن والحوار الندي الناجع.

وضمن بحث له بعنوان :الاستشراق ودراسة التراث الإسلامي : من أهم الإيجابيات، رأى الأستاذ العروسي الميزوري أن موضوع الاستشراق حظي باهتمام العديد من المفكرين والباحثين من مختلف الجنسيات والمعتقدات وقد تباينت آراؤهم بخصوص هذا المبحث من حيث الخلفيات والوسائل والنتائج وانقسموا تجاهه إلى ثلاثة اتجاهات : اتجاه أول اعتبر أن الاستشراق قدم إيجابيات للبحث العلمي. واتجاه ثان وصف مردود الاستشراق بالسلبية. واتجاه ثالث اتسم بالاعتدال فرأى

في الاستشراق منحى إيجابيا وآخر سلبيا. وقد آثر المحاضر في هذا الإطار أن يبرز "أهم إيجابيات الاستشراق في دراسة التراث الإسلامي".

ويعزى اختياره لهذا الموضوع إلى عدة اعتبارات أهمها إثنان. يتمثل الاعتبار الأول في كون الاستشراق يعدّ ظاهرة فكرية حظيت بدراسات ومؤلفات ودوريات متعددة فنشأت في صلبه مدارس وجمعيات واتجاهات نحن في حاجة إلى الإطلاع عليها واختبار مميزاتها النظرية والمنهجية ويكمن الاعتبار الثاني في محاولة إدراك مدى مساهمة الاستشراق في إرساء مبدإ الحوار بين الشرق والغرب ونشر ثقافة الانفتاح والوفاق والتواصل بين حضارات الشعوب وثقافاتها وهي مسائل من أوكد حاجياتنا الثقافية الراهنة.

وجاءت مداخلة الأستاذ فرحات الدريسي بعنوان "جهود المستشرقين اللغوية : مسلك حوار وموطن نزاع" حيث عمل على إبراز مأزق فكري يتسم بالجمع بين مطالب الحوار وشروطه ومطالب النزاع والتنازع في الوقت نفسه من طريق النظر في جهود المستشرقين اللغوية أنموذجا.

وهو يرى أنه لئن عددنا ترسيم فكرة التطور في الدرس اللغوي وتثبيت فكرة حركية الفكر اللغوي بكافة مستوياته الصوتية والمعرفية والنحوية والمعجمية والدلالية، من طريق العلاقات اللغوية الجامعة بين الفصحى واللهجات العامية المختلفة، وجها من وجوه التقريب بين الثقافات وجزءا من الحل المعرفي، فإن ذات الحلّ ينقلب موطن إشكال وسبب نزاع، ووصلا بين المعرفة وإيديولوجيا المعرفة من جهة، وبين المعرفي والسياسي، من جهة ثانية إذ تصير الثقافة جزءا من المشكلة، ذاك ما سعى صاحب البحث إلى بيانه في سياق النظر وإعادة النظر في المعرفة ووظائفها إيجابيا وسلبا.

وفي مداخلة له بعنوان المستشرقون والسيرة النبوية : "بروكلمان وكولدزهير أنموذجا" أبرز المغربي محمد زروق أن المستشرقين اهتموا منذ وقت مبكر بدراسة السيرة النبوية، على اعتبار أنها المنطلق الأساسي لفهم تصرّفات المسلمين وعقليتهم. وقد كانت الأندلس خلال العصور الوسطى مجالا خصبا لهذا الاقتحام إذ عمد الرّهبان إلى ترجمة الكتب العربية، مما نتج عنه ترجمة القرآن الكريم وبعض مصادر السيرة إلى اللغة اللاتينية، وكان هذا كله بمشاركة ملوك أوروبا والكنيسة. لكن يبقى السؤال مطروحا هل أسفر هذا "الاقتحام" الغربي للثقافة العربية الإسلامية عن نتائج إيجابية؟ إن الوقائع التاريخية تبين أن هذه العملية لم ينتج عنها أي حوار حضاري جاد. ولم يكن السبب هو الطرف الإسلامي، إذ كانت صفة التسامح هي الغالبة، فقد اندمج المسيحيون واليهود في الثقافة الغربية الإسلامية أثناء ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس، لكن عندما ضعف الأندلسيون، وحاولوا ترجمة المصادر المسيحية، ومن ضمنها انجيل (برنابا) قال عنها الإسبان إنها "مزوّرة"، وكان في الأخير مصير الثقافة العربية الإسلامية بالأندلس هو الإقصاء.

وخلال فترة العصر الحديث بأوروبا كانت هناك مجهودات كبيرة تتجلى بالخصوص في إنشاء أقسام للغة العربية بعدد من الجامعات الأوروبية، وقامت بعدّة أعمال في مجال السيرة النبوية، اطلع على بعضها بعض علماء المسلمين منذ وقت مبكر وقاموا بالردّ عليها. وحاول الباحث أن يركز في مداخلته على نموذجين من المستشرقين : بروكلمان وكولدزيهر.

ففي نظره ركز الباحثان دراستهما للسيرة على النقط الآتية :

- عالمية الرسالة
- طقوس العباة (تقديس الحجر الأسود - مثلا).
- موقف الرسول - ص - من اليهود
- موقفه من بعض المعاهدات التي أبرمها مع القبائل المحاربة
- رؤيتهما الخاصة لبعض الغزوات
- تفسيرهما الخاص لبعض الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة.

- وقام بدراسة هذه العناصر، مع مقارنتها بما ورد عند المؤرخين المسلمين مبينا أوجه القصور فيها. مع إبداء الملاحظات حول هده الدراسات من ذلك :

- المبالغة في الشك، والافتراض، والنفي الكيفي
- اعتماد الضعيف الشاذ لتأييد رأييهما.
- عدم وضع الأحداث في إطارها التاريخي، وإسقاط رؤيتهم العصرية عليها.
- ردّ معطيات السيرة إلى أصول نصرانية، أو يهودية، أي تجريد الإسلام من أية سمات إبداعية أو أصلية وجعل هذه الصفات حكرا على حضارات قديمة مثل الحضارة الإغريقية والرومانية، وبالتالي فإن الإسلام ؟ في رأيهما ؟ ما هو إلا لون جديد يجمع بين اليهودية والمسيحية، وأن الحضارة الإسلامية في أوج تطورها هي شكل من أشكال الحضارة الهلينية.

وهدف الأستاذ الصادق كرشيد في مداخلة الموسومة بـ : "جهود المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي : السنة النبوية نموذجا" إلى الكشف عن الجهود المتميزة للفيف من المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي عموما والسنة النبوية بشقيها الحديث والسيرة على وجه الخصوص مع إبراز مدى موضوعية ما يثيره البعض حول تلك الجهود من تحفظ وارتياب ويظهره آخرون من إعجاب وانبهار وذلك من خلال تتبع ما اعتمده المستشرقون في هذا المجال من مناهج واستعملوه من أساليب واحتكموا إليه من مصادر، ورصد أهم ما توصلوا إليه من نتائج، وما كان لكل ذلك من دور في توطيد أواصر الحوار وتعميقه بين الثقافتين الإسلامية والغربية.

وركز الأستاذ فريد قطاط في مداخلته التي وردت بعنوان" نولدكه وكتابه تاريخ القرآن" على قيمة المستشرق الألماني نولدكه وما أحدثه كتابه " تاريخ القرآن" من تحولات خطيرة في البحوث القرآنية سواء كان ذلك في أوساط المستشرقين أو الباحثين العرب من المسلمين ومن غير المسلمين وقام بالكشف مفصّلا القول في مضمون هذا الكتاب مع نقد مواطن فيه بدا من الضروري نقدها.

وفي بحث لها بعنوان : الدراسات السوسيولوجية للمجتمعات المحلّية في المغرب العربي خلال الحقبة الاستعمارية قامت الأستاذة عائشة التائب بتحديد الاستشراق في معناه العام بما أنه ذلك العلم أو التخصص المعرفي بتناول المعني الشرق العربي والإسلامي وتأمله من قبل الدارسين الغربيين، وتكمن خصوصية هذا الفرع المعرفي في اعتباره التخصص الذي يملك وحده وبمفرده الأدوات التي يمكن بها إدراك ذلك المجال الخاص وتفهمه أو تملكّه على حد تعبير أدوارد سعيد.

وحاولت رصد ما بذل من جهود في هذا المجال مركزة بالخصوص على بعض البحوث والدراسات المنجزة ضمن حقلي الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع التي ولئن غطت مختلف مناطق المغرب العربي فإنها لم تستهدف المجتمعات المغاربية في شموليتها بقدر ما توجهت إلى تفهم المجتمعات المحلية الصغرى من خلال ما تم إنجازه من دراسات حقلية.

ولمزيد الإحاطة بذلك حاولت المتدخلة الحفر أكثر في ثنايا بعض تلك الدراسات والبحوث لإبراز طرق تناول مجتمعاتنا من قبل البحاثة الغربيين المنضوين ضمن ما سمي بعلم الاجتماع الكولنيالي لا سيما الفرنسيين منهم وما كان ينشده هؤلاء بالخصوص من أهداف ويأملون تحقيقه من غايات.

ونظرا إلى الكمّ الهائل من البحوث والدراسات المتعلقة بهذا الموضوع وامتدادها في المجال لعدد كبير من المجتمعات المحلية بالمغرب العربي وتوحيد أساليبها ورؤاها في الغالب فقد ركزت هذه الورقة بالأساس على دراسة حالة المجتمعات المحلية بالجنوب التونسي وكيفية تناولها من طرف علماء اجتماع الحقبة الاستعمارية وما ترتب عن ذلك من آثار وتحقق من نتائج.

ومن مداخلة له بعنوان " أوبرا عائدة شكلا أوليا للاستشراق : قراءة إدوارد سعيد للاستشراق الأوبرالي" أبرز الأستاذ عادل بالكحلة أن إدوارد سعيد أكّد في كتابه : الاستشراق أن الخطاب الاستشراقي في بدايته التأسيسية لم يتشكل لمعرفة الآخر معرفة علمية أو

إنسانية وإنما ليدرس الآخر من أجل الهيمنة عليه وتبرير استعباده.

وفي "الثقافة والإمبريالية"، يدخل إدوارد سعيد منطقة التقاطع والتشارك الجدلي بين الشرق والغرب. ومن الأدلة التي استخدمها في هذا الكتاب "أوبرا عائدة" التي ألفها فيردي عام 1970.

كان ذلك بطلب من الخديوي إسماعيل إذ أرادها أن تكون مجلى لما رآه عظمة شخصية ومصرية، إذا فتح بتنسيق مع البريطانيين السودان والحبشة وأوغندا، وأقحم ملامح تحديثية بالبلاد عمارة ووسائل نقل وتصنيعا وتدبيرا سياسيا واقتصاديا...

لكن فيردي ألف الأوبرا بحياد شعوري، إذ يصرّح في رسالة بأنه "لا يجد نفسه قادرا على الإعجاب بهذه البلاد "التي يجهل تاريخها ما بعد الروماني، ولم يزرها من قبل. فيسقط طقوس الكهانة الرومانية عل الثقافة الدينية المصرية القديمة، ويصنع قوة مصرية تهزم الأحباش، ولكن البطل المصري الفاتح تحكم عليه الأقدار بالموت خنقا.

لقد نفخت "عائدة" في الهيكل الخديوي متوقعة اختناق النهضة الخديوية وسقوطها النهائي في الفخ الأوروبي. وقد جاءت، في نظر إدوارد سعيد لإنتاج "لغة إضافية، ولذة مسح المكان والسيطرة عليه".

فلقد كانت "عائدة" عملا انتقائيا أكد الصورة الإمبريالية عن مصر. فهو عن مصر كما تريدها العين الإمبريالية، وليس عن مصر التاريخية ما بعد الرومانية.

ولكنه ترك أثاره الممتدة إلى الآن، في السينما والموسيقى والرقص والمسرح والأدب سواء في الإنتاج الثقافي العربي أو في الإنتاج الثقافي الغربي المتناول للشرق.

واهتمت الأستاذة منجية السوائحي في مداخلتها بدراسة مبحث علوم القرآن في ضوء الرؤية الاستشراقية وتطرقت إلى بيان الأسس النظرية لنولدكه وروجيس بلاشير في هذا الموضوع.

وكانت للأستاذ جمعة شيخه جولة هامة مع أطروحات المستشرقين الإسبان مبرزا أن استلهام عناصر الثقافة العربية في الآثار الأدبية والفنية مثلما هو الشأن مع غوته ولوركا لا يعد استشراقا.

وكان قد شارك في هذه الندوة الأستاذ سالم يفوت (المغرب) ببحث يحمل عنوان : "الاستشراق وعي بالذات من خلال الوعي بالآخر".

وكانت لنا مشاركة ضمن أعمال هذه الندوة ببحث يحمل عنوان : "التصوف والفن الإسلامي في مرآة الاستشراق : مسألتان و الإشكالية واحدة". وقد تبين لنا من خلال اشتغالنا على هذا الموضوع أن ما يربط بين مبحث التصوف والفن الإسلامي في اهتمامات المستشرقين هو إشكالية البحث عن المصدر المرجعي، ونقصد بذلك المؤثرات الثقافية والحضارية والينابيع المعرفية، إذ تكثفت الأطروحات التي ترى أن الدّافع الأساسي لظهور الفكر الصوفي في الإسلام وتطوره على النسق الذي عرف يعود إلى مؤثرات ثقافية شرقية فارسية وهندية ويونانية فلسفية، وفكرية ودينية مسيحية ويهودية...

وكذلك الشأن في الفن الإسلامي الذي حاولت عديد البحوث الاستشراقية ردّ مناحيه الجمالية إلى مؤثرات حضارية وثقافية ساسانية ورمانية ومسيحية...

لكن انطلاقا من الاختلاف والتّميز الذي هو قانون تتأسس عليه كل حضارة وتتخذ من خلاله شخصيتها، جعل أغلب الدراسات الاستشراقية تعود لتؤكد على فرادة التصوف في الإسلام وكذلك الفن وأصالتهما رغم تأثرهما بالعوامل الثقافية والحضارية ومن هنا تأكد لدينا أنه:

ليس محض صدفة أن يمثل التصوف وكذلك الفن الإسلامي : الخط والزخرفة (الأرابسك Arabesque) المجالات الثقافية الأكثر تعبيرا عن روح الخصوصية والإبداع في الحضارة الإسلامية، على عكس الحقول المعرفية والفنية الأخرى التي هي إما انبتات على الأصيل أو محاكاة باهتة للدخيل الوافد.

مثلما أنه في توحّد التصوف والفن الإسلامي في مقولة "التجريد" (L'Abstraction) ما يوفر لنا منطلقا لقراءة مميزات هذين المجالين ويكون ذلك مدخلا لفهم إشكالياتهما الأساسية... فعبر التصوف والفن أعيد صياغة إشكالية المعرفة والذات والأصالة. كما جسد التصوف والفن انفتاحا على الآخر والمختلف ومارسا نوعا من الإبداع الخلاّق في صياغة مضمونهما الفكري والمعرفي عبر التاريخ.

وختمت هذه الندوة بكلمة لمدير المعهد الأعلى لأصول الدين الأستاذ الدكتور بشير بوزيدي الذي أكد على الأهداف الكبرى لتنظيم هذه الندوة ومنها تفعيل قنوات الحوار والتواصل بين الثقافات مع تعميق مدارات البحث العلمي في مجالات الثقافة والتراث والمعارف الإسلامية، وفي السياق ذاته كانت كلمة رئيس جامعة الزيتونة الأستاذ الدكتور سالم بويحيى.